الأهرام

المصدر:

التاريخ :

الشرق الأوسط تنشر نص المحاضرة التي منعت في الخرطوم

الصورة المستقبلية للإسلام في ظل النظام العالمي الجديد

بقلم: الصادق المهدي

في الشاعن والعشرين من الشهر الماضي كان من المقرر ان يلقي السيد الصادق المهدي رئيس الوزراء السوداني السابق زعيم حزب الأمة محاضرة عامة في قاعة الشارقة في جامعة الخرطوم، الا ان سلطات الأمن الغتها في آخر لحظة واستدعت المهدي لاستجواب طويل امتد بضع ساعات. وقد تمكنت «الشرق الاوسط» من الحصول على نص المحاضرة الممنوعة وتنشره هنا كاملا:

١ـ لرسم معالم هذه الصورة ينبغي ان نحدد ماهية موقف الاسلام في المستقبل المنظور وان نوضح معالم النظام العالمي الجديد، لذلك فإنني أبدأ بطرح سؤال ما هو النظام العالمي الجديد؟ بعدها تتبين الاشياء. المدخل لمعرفة النظام الجديد هو معرفة النظام العالمي القديم. كان النظام العالمي القديم يقوم على قوة الدول وسعيها لفرض هيمنتها على الدول الاخرى بمقدار تلك القوة. وكان التنافس بين الدول الساعية لبسط هيمنتها يفرض توازناً دولياً تجري في ظله العلاقات الدولية.

وفي القرن التاسع عشر الميلادي اخضعت الدول الاوروبية الكبيرة اجزاء المعمورة الاخرى لامبراطورياتها. وكانت هذه الامبراطوريات تتنافس في كل مكان وتلتقي احياناً في اجتماعات دولية لتقسيم المصالح ومناطق النفوذ. فإن نجحت هذه الاجتماعات قسمت المناطق وتحددت المصالح وحفظ السلام والا وقعت الحرب.

كان العالم غالبا خاضعا لنفوذ الامبراطوريات الاوروبية وعندما اختفت في تقسيم النفوذ والمصالح بينها في اوائل القرن العشرين خاضت حربا سميت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨). وقبل ان تنتهي الحرب جر التآل الاوروبي امريكا الى حلبة الوغى فدخلت طرفا مؤيدا للتحالف الذي قادته بريطانيا ضد التحالف الذي قادته المانيا. وانتصر التحالف الذي قادته بريطانيا واستطاعت امريكا ان تطبع الفترة التالية للحرب بطابعها الليبرالي المثالي مما ادى الى قيام نظام عالمي لأول مرة هو نظام عصبة الأمم.

كانت الشروط التي فرضها المنتصرون في الحرب العالمية الاولى مجحفة. وكان نظام عصبة الامم هشا وكان التنافس الدولي بين الدول الاوروبية شديدا. هذه العوامل دفعت العالم الى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) وبعدها اتفق على قيام نظام الامم المتحدة وهو نظام يقوم على ميثاق الامم المتحدة الملتزم بالعدل والسلام والتعاون الدولي. ويقوم على مجلس الامن كهيئة تنفيذية للامم المتحدة والجمعية العمومية كبرلمان لكل الدول في العالم الاعضاء في الامم المتحدة. والهيئات المتخصصة وهي هيئات مكونة من الامم المتحدة للتخصص في الشؤون المختلفة كالثقافة (اليونسكو) والصحة (منظمة الصحة العالمية)، والزراعة والاغذية (الفاو) وهلم جرا.

هذا هو نظام الامم المتحدة وقد نشأ تحته نظم كونتها الدول هي:

أ ـ الاحلاف العسكرية بين الدول المعنية مثل حلف الناتو الذي ضم دول شمال الاطلنطي. وحلف وارسو الذي ضم دول شرق اوروبا. وهنالك تحالفات عسكرية اقليمية اخرى وتحالفات ثنائية.

ب ـ وفي مرحلة ما لدى حدة التنافس بين ناتو ووارسو نشأ معسكر عدم الانحياز في عام ١٩٥٤م.

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

ج - ونشأت منظمات اقليمية مثل منظمة الدول الامريكية - مؤتمر الدول الاسلامية - جامعة الدول العربية - منظمة الوحدة الافريقية... الخ.

د - ونشأت تكتلات ذات طابع اقتصادي بعضها متفرع من الامم المتحدة مثل البنك وصندوق النقد الدولي والاتفاقية العامة للتعرفة والتجارة. ومنها ما هو خارج نطاق الامم المتحدة. مثل المنظمة الاقتصادية للتعاون والتنمية (O.E.C.D) والاوبك واتفاقية لومي (للتعاون بين دول غنية وفقيرة) ومجموعة الـ ٧٧. هذا النظام القائم على الامم المتحدة وما نشأ في ظله من نظم واتفاقيات تراعي ميثاق الامم المتحدة هو الذي صار يشكل الشرعية الدولية. لقد انتقل العالم من وضع عالمي تخضع العلاقات الدولية فيه للقوة والهيمنة والتوازن الى عالم يحاول اخضاع القوة والهيمنة والتوازن لمبادئ ونظم الشرعية الدولية

٢- الدولة الاسلامية التاريخية كانت جزءاً من النظام العالمي القديم. واساس سياساتها في ذلك الزمان مفصل في كثير من كتب الفقه مثل كتاب السير للامام محمد بن الحسن الشيباني احد صاحبي ابي حنيفة. وخلاصة رأيه هو ان بلاد الاسلام هي دار السلام اما البلاد الاخرى فهي دار الحرب وليس بين الدارين الا القتال حتى يستسلم من في دار الحرب ويؤدوا الجزية للمسلمين. انها سياسة تلائم ظروف دولة عظمى تسندها القوة وتتنافس مع الدول الاخرى لبسط الهيمنة. ولكننا اذا بحثنا النصوص الاسلامية القطعية لما وجدنا اساساً اسلامياً ملزماً لاتباع تلك السياسة بل لوجدنا دلائل اسلامية لسياسة دولية تقوم على السلام العادل والتعاون الدولي والشاهد على ذلك: قال تعالى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم. ان الله يحب المقسطين». وجاء في الحديث: المسلمون عند شروطهم. وجاء: ثلاثة الكفر والايمان فيهن سواء العهد، والامانة، والرحم فمن عاهدت فأوف له بالعهد مؤمنا كان او كافرا.

هذا هو المدخل الاسلامي لنظام مثل نظام الامم المتحدة الحالي. ولكن النظام العالمي عليه مآخذ كثيرة من زاوية العدالة والفاعلية اهم تلك المآخذ:

أ - الالتزام بميثاق الامم المتحدة اختياري.

ب - الدول الخمس التي انتصرت في الحرب العالمية الثانية اخذت لنفسها حقوقاً في مجلس الامن - حق النقض - غير عادلة.

ج - تمادى النزاع بين المعسكرين المتنافسين الناتو والوارسو تماديا جعلهما يدوران حول الشرعية الدولية ويسعيان لتحقيق مصالحهما بوسائل تتناقض والشرعية الدولية. الشاهد الآتي هو وثيقة امريكية تكشف ما اباحته الدول الكبرى لنفسها تحديا للشرعية الدولية. انه نص لما قالت لجنة امريكية كونت في عهد الرئيس الاسبق هاري ترومان. وكانت برئاسة هوبرت هوفر في عام ١٩٥١م جاء في النص:

«انه من الواضح الآن ان امريكا تواجه عدوا لا يخفي اهدافه في السيطرة الدولية. وعلينا ان نحاربه، وفي حربنا معه ليست هناك قواعد تستحق الالتزام بها سواء من ناحية السلوك الانساني او الاخلاق. فاذا كان على امريكا ان تنتصر في هذه الحرب، فإن القيم التقليدية للتعامل العادل يجب ان يعاد النظر فيها. ومن المحتم ان نتعلم دروس الانقلاب والتخريب وتدمير اي عدو بطرق اكثر مهارة واشد تعقيدا من اي طرق قد تستخدم ضدنا».

لهذا المنطق كونت وكالة المخابرات المركزية (سي.اي.ايه) ولجنة امن الدولة السوفياتية (كيه.جي.بي) حكومتين خفيتا عن اي رقابة داخلية وخفيتا عن اعين الشرعية الدولية.

www.ethraadl.com

د ـ ومما زاد من قلة فاعلية الامم المتحدة ان الدول الأعضاء دول ذات سيادة، ومفهوم السيادة هذا مكن الدول المعنية من ارتكاب ما تشاء من جرائم ضد شعبها باعتبار ذلك مسألة داخلية. كذلك زاد من قلة فاعلية الامم المتحدة أن اي عضو من اعضائها يمكنه تجنب المساءلة الدولية اذا كان متحالفا مع احد الاعضاء الدائمين في مجلس الامن، لان العضو الدائم بإمكانه حماية حليفه من قرارات مجلس الامن باستخدام حق النقض.

هـ ـ المنظمات الدولية المتخصصة التابعة للامم المتحدة عانت في البداية من هيمنة الدول الكبرى عليها، ولكن مع زيادة عضوية الامم المتحدة، ومع تعاظم دور الدول المتوسطة والصغيرة غلبت الصفة الديمقراطية على كثير منها مثل اليونسكو والفاو... الخ.

و ـ المنظمات الاقليمية كالجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية تعاني من قلة الفاعلية في تحقيق اي عمل مشترك.

ز ـ بلغ تسابق التسلح بين المعسكرين مدى بليغاً بحيث يستطيع كل معسكر ان يدمر المعسكر الآخر تدميرا تماماً. ولا يشفع لاحدهما ان يوجه الضربة الاولى، فكلاهما يستطيع ان يتلقى الضربة الاولى ويرد عليها.

هذا التوازن في الرعب النووي منع تطور المواجهة بينهما الى درجة اطلاق النار، لذلك اتخذ التنافس بينهما طابعا غير ساخن. مثل الحرب بالوكالة، وبذل الدعم العسكري والاقتصادي للاصدقاء والتنافس بكل الوسائل ما عدا الاشتباك الناري المباشر. هذا الصراع هو الذي سمي الحرب الباردة التي استمرت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في ١٩٤٥م حتى عام ١٩٩١م.

هذه العوامل السبعة هي التي شوهت النظام العالمي القائم على الشرعية الدولية، وانبرى الكتاب في مناطق كثيرة يرسمون صورة نظام عالمي خال من هذه التشويهات ويتطلعون لإصلاحات تدعمه.

٣ ـ ولكن في عام ١٩٩١م وقع حدثان مهمان: الأول هو انهيار المعسكر السوفياتي، والثاني هو غزو العراق واحتلاله لدولة عضو في الامم المتحدة هي الكويت. الحدث الأول وضع حدا للحرب الباردة، وأزال الوزن المضاد للمعسكر الغربي. والحدث الثاني مكن الولايات المتحدة كقائد للمعسكر الغربي من تبني موقف الشرعية الدولية وقيادة الأسرة الدولية في اتجاه يحقق الشرعية الدولية ويمكن امريكا من تحقيق اهدافها القومية في المنطقة. ان النظام العالمي الجديد في نظر كثير من الامريكيين هو تطابق بين السياسة القومية الامريكية والشرعية الدولية. تطابق اظهره وجعله ممكنا انهيار المعسكر السوفياتي والعدوان العراقي على الكويت. هذا التصور جعل امريكا ومعسكرها في مكان الشرط العالمي. وهناك تطورات اخرى في الساحة العالمية بعضها حسن وبعضها قبيح، اذكر منها:

أ ـ ان ما حدث للمعسكر السوفياتي قبيح من حيث انه ازال عهد التوازن في السياسة الدولية، ولكنه حسن من حيث انه ازال باطلا.

لعل انهيار المعسكر السوفياتي من الاحداث القليلة التي قررها التحليل الماركسي. قال جورجي بلكيخانوف: ان مقولة ماركس ان الانسان هو الذي يصنع تاريخه مقولة صحيحة، ولكن هذا يحدث في اطار الواقع المادي والموضوعي المحيط بالانسان. لذلك فالمنتظر ان تتطور الرأسمالية في روسيا لتبلغ درجة معينة من النضج ثم تفضي للاشتراكية سواء عن طريق التطور او الثورة. ولا سبيل للقفز فوق هذا الواقع المادي والاجتماعي. وان حدث فسوف يؤدي لنتائج عكسية. ولكن لينين رفض هذه الضوابط، وقال ان ظروف روسيا من حيث مسار القيصرية والهزيمة في الحرب الاولى تتيح فرصة للقيادة الثورية والحزب الثوري لاستلام السلطة السياسية ومن موقعها بناء الاشتراكية.

www.ethraadl.com

ب - لقد ادى انهيار المعسكر السوفياتي الى تحرير كثير من الشعوب المظلومة على امرها، المجسبرة على الامتثال لشعارات وسياسات خيالية ارهقتها كثيرا واستنزفتها كثيرا.

ج - لقد صارت الشيوعية بوجهها اللينيني والستاليني - وبصرف النظر عن انتمائها الماركسي - خطة اتاحت للثوريين برنامجا لاستلام السلطة السياسية والمحافظة عليها عن طريق القهر، وبرنامجا للتنمية الاقتصادية الخاضعة للتوجيه المركزي، المطروحة باسم الفقراء والمستضعفين بصرف النظر عن صحة ذلك. هذا البرنامج السياسي الاقتصادي الامني تعلقت به عقول وقلوب الكثيرين لاسيما في البلدان التي تواجه الانتقال من مجتمعات تقليدية الى مجتمعات حديثة.

الانقلاب المدني، والانقلاب العسكري، والحزب الواحد والخطة الخمسية، وسيطرة القطاع العام، والدولة البوليسية، هي الوسائل التي انتشرت في مناطق كثيرة تبشر بانتقال سريع الى حياة اعدل وافضل. هذا البرنامج اصيب بضربة قاضية بانهياره في الاتحاد السوفياتي وفي شرق اوروبا.

د - لقد كانت ضرورة التماسك في وجه المعسكر السوفياتي سببا في امتثال المعسكر الغربي لقيادة واحدة وسياسة واحدة. ولكن مع غياب الخطر السوفياتي فإن دول المعسكر الغربي بدأت تتصرف بمرونة اكثر وحرية اكبر، مما سيؤدي لبروز مراكز جديدة في الغرب. هذا سوف يؤدي حتماً لتوازن جديد في كل المجالات، توازن تلعب فيه اليابان والمانيا وفرنسا وغيرها دورا اكبر.

هـ - ومن النتائج الخطيرة للتطورات المذكورة تحقيق حرية الحركة لليهود في اقليم شرق اوروبا وفي الاتحاد السوفياتي حيث يوجد ثاني اكبر تجمع سكاني لليهود في العالم. ومع ان تطلع غالبية هؤلاء ان ينزحوا الى الغرب فإن اسرائيل والوكالة اليهودية عملا على توجيه النزوح نحو اسرائيل، فارتفع عدد النازحين الى اسرائيل الى حوالي نحو ثلاثمائة الف شخص في العام.

و - ان انهيار المعسكر السوفياتي وانحسار مفاهيم النظم السياسية الشمولية، وبروز جدوى اقتصاد السوق الحر هي العوامل التي دفعت بعض المفكرين الغربيين الى اعتبار ان تطور الانسان التاريخي قد انتهى الى الليبرالية سياسيا، والى اقتصاد السوق الحر اقتصاديا. وكتب المفكر الامريكي فرانسيس هوكوياما منبئا بنهاية التاريخ الانساني. ان الشرعية الدولية كما يمثلها نظام الامم المتحدة المبرأ من التشويهات هي المرآة الدولية للنظام الليبرالي وشرعيته الدستورية على الصعيد النظري. هذه الشرعية الدولية المبرأة من التشويهات هي ما يقتضيه منطق التطور التاريخي وما تتطلع اليه التيارات المستنيرة في الغرب. انها النظام العالمي الجديد في نظر تلك التيارات المستنيرة وفي نظر البلدان المستضعفة. ولكن تيارات اخرى في الغرب ترفض هذه المفاهيم وتتصور النظام العالمي الجديد في شكل هيمنة غربية يلعب فيها معسكر الناتو دور الشرطي للعالم.

ان النظام العالمي الجديد الذي يليق بإخاء الانسان وكرامته هو الذي:

- يقوم على الشرعية الدولية المبرأة من التشويهات.
- يدعمه توازن جديد بين القوى العالمية يحول دون الهيمنة.
- يدعمه تطور منظمات الامم المتحدة المتخصصة نحو مزيد من الديمقراطية والفاعلية
- يدعمه تطور المنظمات الاقليمية نحو عطاء اكبر.

ان في الغرب توجها استعلائيا خطته الهيمنة والاستغلال، ولكن هنالك تيار اخر ينشد مصالحه ويدرك ان ذلك لن يتحقق الا اذا روعيت مصالح الآخرين، هذا هو تيار المصلحة المستنيرة. ولكي نلقي الضوء على اهم المصالح الغربية في منطقتنا ومتجهات الاحكام البسيطة السائدة اوضح اهم المؤثرات على السياسة الغربية في المنطقة العربية الاسلامية، انها:

أ - كثير من التيارات الفكرية والدينية والوطنية في الغرب تتعامل مع العالم الاسلامي بنوع من البارانويا وتظهر هذه العقدة في مظاهر عديدة

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

مثل الخوف من كل ما هو اسلامي، او تعبئة شؤون الشرق الاسلامي في قوالب ذاتية تحجب الرؤية الموضوعية على النحو الذي كشفه ادوارد سعيد الكاتب الفلسطيني في كتاب «الاستشراق». وتثير مظاهر الحركة والنشاط في الاوساط الاسلامية مخاوف في الغرب تكشفها عناوين الكتب التي صدرت في الثمانينات عن حركات البعث الاسلامي، مثل: خنجر الاسلام - الاسلام المتصدي، وهلم جرا.

ب - ان للمنطقة نفسها اهمية خاصة لأنها مهبط اوسع الاديان العالمية اثرا، وفيها مقدسات الاديان الابراهيمية: اليهودية، والمسيحية، والاسلام.

ج - اهمية المنطقة من الناحية الاستراتيجية من حيث وقوع اهم الممرات المائية والبرية والجوية فيها. ومن حيث وقوعها في قلب العالم القديم: اسيا واوروبا وافريقيا.

د - بالاضافة لهذه الاهمية التاريخية والجغرافية والثقافية، فإن للمنطقة اهمية قصوى من حيث مواردها الطبيعية لاسيما النفط، الوقود المختار للآلة المدنية والعسكرية الحديثة في الوقت الحاضر وفي المستقبل المرئي. اذ ان ٧٥٪ من احتياطي البترول في العالم يقع في المنطقة.

هـ - والمنطقة سوق مهم للمنتجات الغربية لأن فيها قوة شرائية هائلة، وضعفا في الانتاج الصناعي والغذائي مما يجعلها سوقا ضخما لصانعي المنتجات الصناعية ولمنتجي المواد الغذائية في الغرب.

و - هذه العوامل التاريخية، الجغرافية، الثقافية، الاقتصادية جعلت كثيرا من سياسة الغرب حريصين على الا يسمح لأية دولة او مجموعة دول بتهديد المصالح الدولية. كتب دوايت أيزنهاور الرئيس الامريكي الاسبق يومياته، وفيها قال - مشيرا الى امره بإنزال قوات امريكية في لبنان عام ١٩٥٨ - «لا ارى ان لبنان معرض لخطر، فشمعون (الرئيس اللبناني في ذلك الوقت) قد قرر فعلا انه لن يعدل الدستور، ولن يسعى لتجديد رئاسته. ولا املك دليلا على اشتراك الروس او المصريين في ما حدث في لبنان (يقصد الثورة التي هبت في لبنان ضد سياسات كميل شمعون)، او في ما حدث في العراق (يقصد ثورة ١٤ تموز في العراق)، ولا ارى خطرا على مصالحنا الحيوية. فلماذا اذن حشدت كل هذه القوة في لبنان؟ بالتأكيد ان هذا الاجراء ليس موجها للسوفيات، فالسوفيات يملكون من الوسائل ما يعرفون به ما يجري تحت السطح. ان الهدف الحقيقي من هذا الاجراء هو ناصر. انني اريد ان اعطي جمال عبد الناصر مادة للتفكير.

ز - لقد تعددت اسباب قيام اسرائيل. فالنشاط الصهيوني لعب دورا كبيرا ذاتيا في الاستجابة لنداء هرتزل لتكوين دولة يهودية. والعقدة الغربية نحو اليهود اذ اضطهدهم الاوروبيون اضطهادا كبيرا في كل مكان: في اسبانيا، وفي فرنسا، وفي بريطانيا، وفي روسيا. وبلغ مداه على يد النازية في المانيا. هذه العقدة الغربية تجاه اليهود شكلت مسببا خارجيا لدعم قيام اسرائيل ابتداء من وعد بلفور في ١٩١٨م، وما تبعه من دعم الصهيونية انتهى الى قرار الامم المتحدة لصالح الدولة اليهودية في عام ١٩٤٨م. اقول، مع اهمية هذين المسببين الداخلي والخارجي لقيام اسرائيل فإن هناك سببا استراتيجيا مهما دفع قوى الهيمنة الدولية والاستعمار لتأييد قيام اسرائيل في ارض فلسطين لتكون حليفا دائما لتيار التغريب والهيمنة، وعدوا دائما لحركات التأصيل والاتحاد في المنطقة.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية